

جَوْلَةٌ وَرَأَيَ فِي شِعْرِ الْعُلَمَاءِ

الدكتور حلمي حسن لذوق العزّ

مدرس الأدب والنقد
في كلية اللغة العربية بدمشق

ليس ثريبا على راثنا العربي الخالق بضروره الفن ، وألوان المعارف والعلوم أن يتكتشف لنا فيه كل يوم جديده ، وأن تزامى للباحثين فيه صنوف من الجلال العلمي والجمال الأدبي في شتى المجالات ، حتى لمن الشيء ليبدو جديدا مع قدم نشأته وبعد زمانه .

وموضوع بحثتنا هذا عن شعر العلماء ، هو أحد الموضوعات الجديدة القديمة في وقت واحد إن صح هذا .

فلطالما قرأتنا وعايشتنا كثيرة من العلماء داخل مؤلفاتهم أو محاديب علومهم ومعارفهم ، وكتنا فعجب دائمًا من كثرة ما حصله هذا العالم أو ذلك من مختلف العلوم والفنون ، حتى بدت جموعهم بمعرفتهم المتعددة . وعلومهم المتباينة ، أشيء الأشياء بشموس هائلة ، تصدر عن كل قرص منها أشعة مضيئة متعددة ، وإن خرجت من أصل ضوئي واحد .

ولقد رافقني أن أتناول أحد الجوابات الأدبية لدى نخبة من هؤلاء العلماء الأعلام . وهو الشعر بخاصة ، حتى أقيمت ملائمة الفنية ، وأتذوق بحسى الأدبي التواضع بعض ثماره ، رغبة في الوقوف على ماهية هذا اللون الصادر من تبaint في مجالات المعرفة قدراتهم ، وغمرت بالإجاد العلمية والمحصلات الفكرية حياتهم ، فبداك كل منهم أمة بمعرفته ، وموطننا يأوي إليه ذوى البصائر في مختلف الميادين .

وفي الحقيقة أن هناك شيئا آخر كان له نفس الدور والأهمية في دفعنا إلى البحث في هذا المجال ، وهو ما قرأته وسمعته من بعض النقاد المحدثين عن سمات الضعف البادية في أشعار العلماء ، وحشد منظوماتهم بالكمثير من القواعد . أو المصطلحات ، أو الأحكام ، أو النظريات ، إلى آخر ما للعلماء به صلة ، مما يحول بينهم وبين اللحاق بفرسان الخلبة ، من صفاتهم للشعر دون سواه .

وما كدت أجمع غير قليل من المادة التي سأناولها ، حتى رأى
ما وجدته في تراثنا الجليل هؤلاء الأفذاذ من أشعار ، بل من آيات منظومة
في مختلف الفنون والأغراض ، صاغتها يد صناع ، وشفت — بمحاجب
قدراتهم العلمية ومؤلفاتهم الفريدة في موادها وطرق معالجتها — عن
مهارات في النظم ، وقدرة على الإبداع والابداع أيضا لدى الكثير منهم
في تجاربهم الشعرية ، حتى فاقوا بقريضهم كثيرا من منظومات المتخصصين
في الشعر ، والمتفردين بعمله في مختلف العصور .

وفي الواقع أني كنت أشعر بالنشوة الغامرة في كثير من الحالات التي
كانت تقع فيها تحت بصرى إحدى التجارب الأدبية أو المنظومات الشعرية
لأحد هؤلاء العلماء ، الذين تهافتوا موالهم لاستيعاب هذا الحشد الهائل
من العلوم والآداب على وجه سواء حتى أصبح من المأثور أن أجد النادرة
الشعرية ، أو الطرفة الأدبية المستملحة ، لإمام في الفقة ، أو عالم في النحو
أو حاذق في الفلك ، أو بصير بأمور الطب ، أو رائد في الرياضيات ، أو في
الفلسفة ، أو غير ذلك من المواد العلمية ، مما يؤكّد لنا أنه لا مفارقة بين
الفقه والأدب مثلا ، أو بين الشعر في سائر الاتجاهات ومختلف الأغراض
مادام الفقيه أو العالم متثبتا من المادة العلمية أو الأدبية ، إذاته على قدر
هذا التثبت والاستيعاب للمواد ، تكون القدرة على دوام الإعطاء
والإنتاج ، و اختيار الملائم من الألفاظ والعبارات للتعبير عن القصد
و توسيع الغاية إن كان الموضوع عمليا ، أو الترجمة عن المشاعر والاحساس
 بما يناسبها من السكلمات أو الجمل إن كان الموضوع أدبيا .

ومن الطريف أن جل مقطوعات هؤلاء العلماء لم تلق اهتمام مؤرخي
الأدب أو النقاد كما يجب أن يكون الاهتمام ، فظل السكثير منها مغمورا
بين طيات الصحف والكتب ، تتجسد من خلالها ملامحهم ، وتتأكد تسميع
من بين السطور استغاثتها للأخذ بيدها .

ولعل ذلك يرجع إلى تلك الفظرة غير المستأنفة التي درج النقاد على توجيهها إلى أشعار العلماء ورميهم بضعف الملحمة الشعرية ، وتخلفهم في هذا الميدان عن مطاولة تلك المكانة المرموقة التي يحظى بها غيرهم من صناع القراءض .

وعلى هذا ، فحسب المنظومة ضعفها — في نظر هؤلاء النقاد — أن تكون لعالم ، أو أن يحتوى بيت فيما على هذه العبارة أو تلك مما غالب استعماله في أقوال العلماء (ترعيبين أو تغويين أو غيرهم) .

ومن هنا نرى بجانب الإنصاف لأشعار العلماء ، إذ ليس مجرد استعمال عبارة فقهية ، أو انجوية .. الخ ، جديراً باخراج أشعارهم عن تلك المدارس الفلسفية التي اصطنعها النقاد لأشعار الأدباء وحدهم .

فقد تغلب مادة من العلوم بذاتها على باق الموارد لدى النقيه أو العالم ، أو يسكنون اشتغاله بمادة علمية معينة أكثر من سواها ، فلا ضير عليه إذا ما تحركت موهبتة الشعرية آنذاك بجهة خاطرة بذاتها ، أو غرض بعينه ، أن ينظم أو يسجل مشاعره ، بأى الألفاظ أو العبارات ، أو الصور والأ الخيالات التي يراها ملائمة لموضوعه أو أزياته ، دون تحفظ من ألفاظ خاصة أو اقتصار على جمل معينة ، أو حرص على عبارات دون غيرها ، أو التزام بأخيال محددة ، فهو بهذا يفقد فظامة الروح ، وببقائه جسداً هريراً يترقب يوم البعث والنشور .

فالعبرة كما نرى ليست في إدخال عبارة أو أكثر من مادة العالم التي كان يعايشها وقت نظمه لأبيات قصيدة ، ما دام غيرها لا يفي بحملولها في توضيع غايتها ، فمن الضرورة أن ترك آثارها في شعره ، وإنما العبرة بقدرة العالم أو الشاعر على الترجمة الصادقة لما يعتمل في نفسه تجاه هذا

ال الحديث أو ذاك ، بما يراه ملائماً للذوق الأدبي الرفيع من الأساليب وطرائق التعبير ، بأى الألفاظ أو العبارات شاء .

وبناء على هذا ، فاعتقد أنه لا يعد من النعيب الفنى ، ولا من المآخذ السليمة على هؤلاء العلماء وجود عبارة أو أكثر منظوماتهم تلفت النظر إلى معرفتهم بهذا العلم أو ذاك ، بل إن من حق العالم الشاعر أن يبدى في بعض أبياته ما يشير إلى ملامحه العلمية ، ويغبة الغافلين إلى سعة إدارته ، وتعدد مواهبه وثقافته ، وإن كفت لا أتصور حرص هؤلاء العلماء على مثل هذا الحق ، إذ تنساب تلك الإشارات البرقية ، أو العبارات العلمية عفوا في منظوماتهم ، دون قصد منهم ، لغيبة هذه المسادة أو تلك عليهم ، وذلك أن لم يكن ميزة لهم فليس مأخذًا عليهم .

ومن هنا ، فلا يمكن أن نعيب مثلاً قول الفقيه الشافعى : حمد بن محمد بن ابراهيم البستى : (١)

تساهم ولا تسموف حركك كله
وأبقى فلم يستقص قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واصمد
كلا طرفي قصد الأمور ذميم

إذ ليس بالغريب على فقيه عالم بأحكام الشريعة أن يقتبس هذا المعنى من قول الله السكريم : « ولا نجعل بذلك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوك ما حسورة » (٢) .

(١) يقىمة الدهر — للشعالى ٤٤٣ ص ٢٩

(٢) سورة الإمراء الآية ٢٩

كما لا نعيب على أبن القاسم الزمخشري قوله في عتبه على الزهن وتقديم
من هو دوافعه عليه :

وآخرني دهرى وقدم مخترى على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومد أفلح الجمال أيقنت أفقى أفا «الميم» . والأيام «أفلح أعلم»
فإذا ما عرّفنا أن «الأفتح» هو مشتوق الشفة السفلية ، وأن الأعلم ،
هو مشتوق الشفة العليا^(١) ، فإن من كان كذلك لا يستطيع أن ينطّق
بحرف «الميم» ، التي رمز بها «الزمخشري» إلى نفسه ، حيث يويد أن يقول :
إنّه لم يُعد حفيها بهذا الدهر الذي علت فيه الأسافل مع جهلم ، وهوت فيه
هزلة الأعلى بع علمهم ، فأصبح بهذا الوضع «المقلوب» فسيما منسيا ، وكأنه
حرف الميم بين الشفتين المشقوقتين للدهر الجمول .

أقول : إننا مادمتنا نعرف «الزمخشري» العالم بأصول اللغة وخارج
حروفها ، والعلامة في النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والتفسير ، فوق حذقه
للشعر ، فإنه لا يمكن أن نعد هذه الألفاظ اللغوية مأخذًا عليه ، أو قدحًا
في شعره كما يقول النقاد . بل من الإنصاف للرجل أن يقال : إن تعبيره هذا
وما احتواه من الخيال ، يعد من التشبيهات النادرة التي قد يعز على سواه
من خول الشعر صوغها بهذا الأسلوب .

وفي إطار هذا المعنى أيضًا ، تطالعنا أبيات أخرى جيدة التعبير
والتصوير لعالم الطب ، والرياضيات ، والفلك ، والهندسة ، والفلسفة
أبي يعقوب السكندي يقول فيها^(٢) :

أفاف الذئاب على الأرؤس فغمض جفونك أو نكس

(١) انظر مادة «فتح» و «علم» في كتب اللغة .

(٢) الحكم والأمثال — لابن سعيد العسكري — ص ١٠٥

وعند مليكك فابغ العلو وبالوحدة اليوم فاستأنس
فإن الغنى في قلوب الرجال وإن التعزز بالأنفس
ولأن تطعم النفس ما تشتهي تفتكم جميع الذي تخنسى

غير للعلماء وأفضل الناس الاعتكاف والوحدة ، حتى لا تنفع أبصارهم
على ما في الحياة من المهازل وقلب الأوضاع الصحيحة ، إذ علت الأذناب
على الرؤوس . وتبوا الأراذل أسمى المنازل في مجتمعنا الإنساني ، ولم يعد
للصفوة من العلماء غير الاستئناس بالوحدة ، وابتغاء مسكناتهم من لا تخفي
عليه منزلتهم ومكانتهم سبحانه وتعالى .

ولو أننا نظرنا في بيته الأخير لجدها تمرسه لعلم الطب ، واستغله به
قد غلب عليه وقت إنشاده ، « فشخص الداء » و « أعطى الدواء » خلال
هذا التشبيه الضمني الجميل ، الذي يدعون إلى الإعجاب بصوته وحسن فتاوئه
لالأفاظ . وروعة ملامته للمعنى .

ومن هنا أيضا ، نرى أن من عدم الإنصاف رمي أشعاره بالضعف ،
لإيقائه بمقابل كلامات : « تطعم » و « تخنسى » و « تتفكم » ، إذ ترشد إلى عمله بالطب
كما يشف تخبرها وحسن صوغها عن قدرات قل نظيرها عند من تفردوا
وبنسبح أرديمة القرىض .

وعلى هذا ، فينبغي ألا نعييب كلامات : « الغربة » و « البر » و « البحر »
و « القفر » و « الناس » و « الأرض » خلال ما يلي من أبيات مادام منشدها
أحد العلماء الجغرافيين وهو : محمد بن عبد الله الإدريسي الأندلسي وذلك
في قوله (١) :

لبت شعري أين قبرى ضاجع في « الغربة » عمرى

لَمْ أَدْعُ لِلْعَسْنِ مَا تَشَاءَ سَاقَ فِي دُبْرٍ وَدُبْحَرٍ
وَخَبَرَتِ النَّاسُ دُوَالَارَضَ، لَدِي خَسِيرٍ وَشَرِّ
لَمْ أَجِدْ دُجَارًا، وَلَا دَارًا كَافِي طَى صَدْرِي
فَكَانَ لَمْ أَسْرِ إِلَّا بَمِيتٍ أَوْ دُبَقْفَرَ.

إِذَا لَا تَغْفِلُنَا تَلْكَ الْكَلَامَاتُ فِي ظَاهِرِهَا عَنْ جَلَالِ مَعْنَاهَا، وَجَمَالِ
صَوْعَهَا وَمَدِي مَلَأَهَا دُونَ غَيْرِهَا فِي الْوَفَاءِ بِمَقْصُودِ الشَّاعِرِ، حِيثُ بَشَهَدَ
مَصْرُعَ الْوَفَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَحُولُ دُونَ غَايَةِهِ غَایَاتِ الْآخَرِينَ.

وَهَكَذَا نَجِدُ أَنْ هُؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ قَدْ عَبَرُوا عَنْ أَحْاسِنِهِمْ بِصَدْقٍ وَأَدْوَى
مَا جَالَ بِخُواطِرِهِمْ فِي كَلَامَ مَنْظُومَةٍ، وَأَبِيَاتٍ جَيِّدةٍ الصَّوْغُ مُحْكَمَةُ النَّسْجِ،
جَذَبَتْنَا نَحْوَهُمْ، وَجَعَلْنَا نَهَايَشُ أَحْاسِنِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ إِلَى حَيْنٍ، دُونَ أَنْ
يَكُونَ لِإِحْدَى الْكَلَامَاتِ أَوِ الْعَبَاراتِ الْعُلَمَاءِ، أَوِ الْلُّغُوِيَّةِ أَثْرٌ فِي الْحِيلَوَةِ
دُونَ بَلُوغِ قَصْدِهِمْ إِلَى مَشَاعِرِغَيْرِهِمْ، وَحَسِبَنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ ذَلِكُ، وَلَا فَهَمَا
يُمْسِكُنَ أَنْ نَحْكُمَ عَلَى مِنْ حَسَنَاتِهِمُ الْشِّعْرَ مِنْ بَعْضِ الْفَرَحُولِ الْمُتَقْدِمِينَ، حَيْنَ
تَبَدُّو فِي مَنْظُوِّ مَاتُوهُمْ أَمْثَالُ هَذِهِ التَّعَبِيرَاتِ الْفَقِيمَةِ، أَوْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ تَلْكَ
الْعَبَاراتِ اقْتِرَابًا مِنْ أَقْوَالِ الْفَقَهَاءِ أَوِ الْعُلَمَاءِ؟

فَلِمَقْرَأً — عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ — قَوْلُ الشَّاعِرِ الْعَبَاسِيِّ الشَّهِيرِ : مُحَمَّد
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْلِيِّ، حَيْنَ يَهْجُو إِنْسَانًا دَفْعَ إِلَى مَصَادِقَتِهِ فَتَرَةٌ ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ
لَوْمَهُ، وَضَعَةُ نَفْسِهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَقَاتَ مُخَاطِبَاهُ إِيَّاهُ(١) :

مَا كَفَتْ إِلَّا كَلْحَمُ مِيتٍ دَعَا إِلَى أَكَاهُ اضْطَرَارِ

إِذْ نَجِدُ الشَّاعِرَ قَدْ اسْتَغْلَلَ تَلْكَ الْقَاعِدَةِ الْفَقِيمَةِ الَّتِي لَا تَبِعُ الْإِنْسَانَ أَكْلَ
الْمَيْتَةِ أَوِ الْجَيْفَةِ إِلَّا فِي حَالَةِ الاضْطَرَارِ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ .

(١) التَّبَيَّنُ لِأَبِي الْبَقاءِ الْعَسْكَرِيِّ — ج٢ ص٢٨١

أقول : إن المهمي قد استغل تلك القاعدة في هذا التشبيه الذي جسد الحاجة إلى مصادقته مع كراهيته له وبغضه فيه .

ثم لنقرأ قول حكيم الشعراء أبي الطيب المتنبي ، في إحدى مدائحه في عمر بن سليمان الشرابي (١) :

وَزَارَكَ بِيْ دُونَ الْمُلُوكِ تَحْرِجِي
إِذَا عَنْ بَحْرٍ لَمْ يَجِزْ لِي التَّيَمِّمُ

فهو يتجلب للخرج وفعل ما يلام عليه، حين يخوض سيف الدولة وحده بالزيارة ويعدل عن زوره من عداه ، لأنـه الـبحر ، وغيره من الملوك قـتـام وتراب ، وهـل يـباح فـي وجـود الـبـحر تـيـمـم ؟

إن المتنبي أيضاً يستغل تلك القاعدة الفقهية التي تبطل التيمم في حضرة الماء ليصوغـها تلك الصياغـة الرائعة في هذا التشـبيـه الضـمنـي البـليـغـ .

ثم لنقرأ بيـتي الشـاعـر المـهجـامـ : دـعـيلـ بـنـ عـلـىـ الـخـزـاعـىـ (ـالـذـىـ لـمـ يـسـلـمـ مـنـ لـسـانـهـ أـحـدـ)ـ حـينـ يـقـولـ (٢)ـ :

يـاليـتـ شـعـرـيـ كـيـفـ نـوـمـكـاـ يـاصـاحـبـيـ إـذـاـ دـمـيـ سـفـكـاـ
لـاـ قـاـخـذـاـ بـظـلـامـتـ أـحـدـاـ قـلـبـيـ وـطـرـفـيـ فـيـ دـمـيـ اـشـتـرـكـاـ

ـفـيـنـ أـرـدـاهـ مـهـمـ الصـبـابـةـ لـمـ يـرـدـ أـنـ يـظـلـ غـيـرـهـ فـيـ سـفـكـ دـمـهـ ،ـ أـوـ يـشـهـدـ
ـشـاهـدـ إـلـاـ عـلـىـ قـلـبـهـ وـعـيـنـهـ ،ـ إـذـ اـرـتـكـبـاـ وـحـدـهـماـ ذـلـكـ الـجـرـمـ ،ـ وـجـرـاهـ إـلـىـ
ـذـلـكـ الـمـصـيرـ ،ـ «ـ وـشـاهـدـاـكـ قـاتـلـاـكـ »ـ كـاـ نـعـمـ .

ـفـهـلـ يـمـكـنـ أـنـ تـهـمـ أـحـدـاـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـفـحـولـ فـيـ شـعـرـهـ ،ـ أـوـ نـقـولـ

(١) دـوـانـ المـتنـبـيـ (ـشـرـحـ الـبـرـقـوـقـ)ـ جـ٤ـ صـ ٢١٣ـ

(٢) الـأـعـانـيـ - الـأـصـفـهـانـيـ - جـ٢ـ صـ ٧٧٨٣ـ (ـ دـارـ الشـعـبـ)ـ .

إن أعمدتهم تقدمن أشهار الفقهاء لصياغتهم بعض الأحكام الشرعية في
بعض الآيات؟

أعتقد أنك توافقني على الإجابة بالنفي ، وإنلا فأي حكم أيضا يمكن أن نطلقه على أشعار أبي الطيب المتنبي ، حين يأخذ معنى بيت لفقيه الشافعية: منصور بن اسماعيل ، ثم يصيغه في أحد أبياته ؟

فلم يقر أصلاً معاً قول الفقهاء الشافعيين^(١):

أقول إن سأله عن سماحته ولست من يطيل القول إن مدحه
لأن مافيها من جود تقسمه أولاد آدم عادوا كلهم سمحا

ثم لنقرأ قول حكم الشعراء (٤) :

نحو فرق الْكَرْمِ الْمُفْرَقِ مَالَهُ

في الناس ، لم يك في الزمان شهيد

إذ لا يخفى ما بين ثانى أبيات الفقيه وبين بيت المتنبى هن وشائعى القربى
بل والانصراف فى بوققة واحدة .

وأعتقد أن هذا القدر من الأضواء كاف لتوسيع الرؤية تجاه ما تغيرناه من نماذج شعرية لبعض العلماء، والأدباء، وكيف طعمت بعض منظوماتهم بصطلاحات علمية ، أو أحكام شرعية ، أو قواعد نحوية ،

(١) التبيان ج ١ ص ٢٥٠

(٢) دیوان المتنی ج ۱ ض ۳۷۴

أو دلالات لغوية ، وغير ذلك مما له بالعلوم صلة حيث قدمو الحاجة إلى هذا عند الأديب . أو تغلب المهمة بذلك لدى العالم ، إذ لا ضير ولا حرج على أيهما في هذا ، مادامت الألفاظ والمعانى ليستا ماسكا لفمها دون غيرها أو أن للعلماء ما ليس للأدباء من وسائل التعبير والتوصير ؛ فالعبرة كافية فيما لدى الشاعر — عالماً أو أدبياً — من القدرة على تخيير الألفاظ وانتقاء العبارات ، وجودة الصياغة ، وملامدة التصوير ، وذلك لا يتأتى بغير تمكن الناظم ونثيته من المادة ، فعلى قدر ثقافته وعمق معرفته ورسوخ قدره فيها وإلمامه بها ، تكون قدرته على الإبداع في النظم ، والسمو في الغاية ، ومواصلة الإعطاء .

وبناء على هذا ، فليس من حق الناقد أن يقذف المنظومة الشعرية بالضحك أو بالضعف لأن فاظنها من العلماء ، أو مجرد احتواها على بعض الكلمات أو المصطلحات العلمية ، بنفس القدر الذي لا يتيح له الحكم بالجودة أو بالقوة على منظومة أخرى ، لأن صاحبها ليس من العلماء وإن تخللت أبياتها بعض العبارات أو المصطلحات مما سبق الحديث عنها ، وذلك لأن المهمة الحقيقة والمثالية للناقد هي أن يمعن النظر في النص (للحالم أو الأديب) فيعييه إذا ما بدت الكلمة أو العبارة المقتبسة نابية عن الذوق الأدبي السليم ، أو تهاوت من الضيق بين جاريها في البيت الشعري فأحدثت به هزة في المعنى ، أو اضطربابا في الفكرة ، أو خللا في الصياغة والتركيب ، وإلا حكم لصاحب النص بالجودة والشاعرية .

كل هذا دون تحييز لفمها ، أو لشخص ، أو سير وراء الهوى ؛
فذلك أدعى للحكم على الناقد ، أو له أيضاً من الآخرين .

ومادمنا في وياض الأدب — وما أجملها وأسعد القلوب بها — فلنخط

بعض خطوات في رحابها الزاهرة النضرة ، ولنتأمل بخاصة فيما أذ شأنه
وتعهداته أيدى علمائنا الشعراء ، حيث فتخير لهم بعض الجنى ، ونقطف
من غراسهم المتباينة خير الثمار .

ولعل من أكثر الأغراض طرافة في منظومات العلماء هو : « الاعتداد
 بالنفس » أو ما يسمى بفرض « الفخر » لدى غيرهم من الشعراء .

إذ تجد للعلماء في هذا المقام أو الغرض الفنى ما ي بيان أقوال سواهم
وأفكارهم ومعانיהם ، وأخيتهم في نفس الغرض .

فعدنا بالشعراء أن يفتخروا ، أو يفاخروا بالنسبة ، والجاه والغنى
والشجاعة .. إلخ

ولكن ما نجده لعلمائنا الشعراء ، يسمى فوق هذه الغايات إذ يناؤن
ياقو لهم عما يقلل من هيبة لهم ، أو يخدش وقارهم ، ولا يصدر عنهم ما يخل
بوزعهم ومكانتهم بين سواهم ، فهم يفاخرون بفقرهم ، ويفاهون بعلمههم
ويكترون من القول في الترفع بذواتهم ، وتحقير كل ما يعد غاية لغيرهم من
ألوان المتع والنعيم والجاه في الحياة ،

فها هو ذا سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، يكتب إلى الخليل بن
أحمد الفراهيدي — وكان سليمان من الحسين له ، والمقدرين لفضله وعلمه
يستزيره إلى المسند « حيث كان سليمان واليا عليها ، فيرفض الخليل قلبية
دعوه ، ويكتب إلى حامل الدعوة من سليمان هذين البيتين :

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة
وفي غنى غير أنني لست ذا مال
الرزق عن قدر ، لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال

وَعِنْدَمَا بَلَغَ قَوْلَهُ هَذَا سَلِيْمَانُ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِهِدْيَةٍ وَمَالٍ كَثِيرٍ ، وَلَكِنَّ
الْخَلِيلَ يَرْدَهَا إِلَيْهِ ، وَيَنْشُدُ قَوْلَهُ :— (١)

وَخَصْلَةٌ يَسْكُنُ الشَّيْطَانُ إِنْ ذَكَرْتَ
مِنْهَا التَّعْجِبَ ، جَاءَتْ مِنْ سَلِيْمَانًا

لَا تَعْجِبُنَّ لَخِيرَ زَلَّ مِنْ يَدِهِ
فَالْكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقِي الْأَرْضَ أَحْيَانًا

إِذْ نَرَى الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ فِي كَلْمَاتَهُ قَافِعًا بِرَزْقِهِ الْمَقْدُرِ لَهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ
بِحَاجَةٍ إِلَى عَطَاءِ مَخْلوقٍ ، لَأَنَّهُ بِعِلْمِهِ فِي سَعَةٍ وَغَنِيٌّ عَنْ ذَوِي الْجَاهِ حَتَّى وَإِنْ
أَفْتَقَدَ الْمَالَ ، أَوْ عَصَبَ الْحَيَاةَ كَمَا تَهْوَلُ .

وَهَا هُوَ ذَا عَبْيِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَتَّبَةَ (أَحَدُ الْفَقِيهَاتِ السَّبْعَةِ فِي الْمَدِينَةِ)
يَغْضِبُ مِنَ الْخَلِيفَةِ الْعَالَمِ الزَّاهِدِ : عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَذَلِكَ حِينَ يَذَهَّبُ
إِلَيْهِ عَبْيِيدُ اللَّهِ مُسْتَأْذِنًا فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ الْحَاجِبُ مُحِيلًا بِيَدِهِ وَبَيْنَ
الدُّخُولِ ، مُخْتَجِيًّا بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ يَنْفَرِدُ بِعِبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرٍ بْنِ عَثِيَّانَ بْنِ عَفَانَ
لِأَمْرِ مِنَ الْأَمْوَارِ ، فَيَعُودُ عَبْيِيدُ اللَّهِ إِلَى بَيْتِهِ ، وَيَكْتُبُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
أُبَيَّاتًا يَقُولُ فِيهَا : (٢)

وَلَنِي أَمْرُقُ مِنْ يَصْفِنِ الْوَدِ يَلْفِنِي
وَلَنِي فَزَحْتُ دَارِبَهُ دَائِمُ الْوَصْلِ

(١) الأوراق - لـ الصوالي - قسم أشعار أولاد الخلفاء ص ١٥ وفيه نسب
هذا البيتان لـ اسماعيل بن سماعة في ذم والي الرقة : سليمان بن المنصور
و فيه كلمة « وزلة » بدلاً من كلمة « وخصلة » .

(٢) الأغاني ٩ ص ٣٣٦

عزز إخائي ، لا يقال مودي
من الناس إلا مسلم كامل العقل

ولولا اتفقني الله قلت قصيدة
تسير بها الركبان ، أبودهبا يصل

بها تنقضى الأخلاس^(١) في كل منزلي
وينفي الكرى عنها صاحب الرحيل

كفاي يسير إذ أراك بحاجتي
كليل اللسان ، ما تمر وما تحلى

تلاوذ^(٢) بالأبواب مني مخافة إلـ
سلامة ، والإخلاف شر هن البخل

أبن لـ ، فـ كـن مـثـلـ ، أو اـبـتـغـ صـاحـبـاـ
كـشـلـكـ ، لـ فـ تـابـعـ صـاحـبـاـ مـثـلـ

يقول الرواة : إن عمر لما أخبر بأبيات عبيد الله الفقيه ، تأثر تأثراً
شديداً ، ثم بعث إليه عراك بن مالك ، وابن أبي خيمحة ، يعذر أنه عنده ،
ويقولان له بلسان عمر : إن عمر يقسم بالله ما علم بمجيئك ولا برد الحاجب
إياك ، فأقبل عذرـه ، فـعـذـرـهـ .

فـأـيـ تـقـدـيرـ مـنـ خـلـيـفـةـ يـطـاـولـ هـذـاـ التـقـدـيرـ لـرـجـلـ مـكـفـوفـ الـبـصـرـ ؟ـ إـنـهـ
الـعـلـمـ وـفـضـلـهـ ، وـصـدـقـ الحـقـ القـائـلـ :ـ دـيـرـفعـ اللـهـ لـلـذـينـ آـمـنـواـ مـنـكـمـ ،ـ وـالـذـينـ
أـوـتـواـ الـعـلـمـ درـجـاتـ .ـ

ثـمـ لـنـعـدـ إـلـىـ الـأـيـاتـ ،ـ وـلـنـتأـمـلـ قـلـيلاـ فـيـهاـ قـالـهـ عـبـيـدـ اللـهـ الفـقـيـهـ لـلـخـلـيـفـةـ

(١) الأخلاس (جمع حلس) وهو ما يلي ظهر البعير أو الدابة

(٢) تلاوذ : تراوغ وتهرب

فيها . ألمست ترى معنى كيف استطاع هذا العالم ، أن يسلك بقصداته
ملك المطلوبتين من الشعراء ، فيمتدرج بالفاظه ، ومعانيه ، وأخيالته ، في
ترجمة مشاهيره ، وتجسيد أثر فقيعته في نفسه ، إذ أمريه تقديره من حاجب
الخليفة ، ظافرا علم الخليفة بذلك ، و « إن بعض الظن إثم » .

فترة في بيته الاولين يرسم بعض خلاله وصفاته الى جملها عنه الخليفة،
اذ لم يكن جديراً بأخوته وموته غير المسلم السكامل العقل .

وهكذا، وبهذا القدر من الغلظة والقسوة يجازى الخليفة عمر بن عبد العزيز، مقابل رفض حاجبه السماح له بلقائه عبيد الله الفقيه.

ثم يبدى نفسه في ثالث الآيات ورابعها وهو يحاول كظم غيظه، وكأنه لم يرق بالجزاء إلى ما يليق بفعال الخليفة، حيث تحول خشية الفقيه من الله دون هجاء عمر، بما ينفي الكرى ويقض المضاجع من الكلمات.

ثم قلنساب الألفاظ القاسية ، والعبارات القارضة الموجمة في خامس الآيات وسادسها ، موجهة إلى جسد الخليفة ، إذ يبيدهه كليل اللسان ، قليل الحيلة أمام الحاجة الييسيرة ، وأن لقاء عمر به مع بخله كان أهون على نفس عبید الله من تهريه منه وخشانته مواجهته .

وفي النهاية يختتم أبياته بتلك النصيحة القاصدة التي لا يتحملها غير عمر بن عبد العزيز، وظنني أنها لا تصدر آنذاك أيضاً إلا من عبد الله الفقيه.

فَلَمْ يَأْمُرْ بِعَقَابِهِ، وَلَمْ يَطْلُبْ هَذِهِ الصَّفْحَ وَقَبْوُلَ العَذْرِ .

وَلَهُ درَالْعَالَمِ الْفَقِيهِ وَالشَّاعِرُ الْمَطْبُوعُ، لَذِلِكَ يَخْشَى إِلَّا اللَّهُ فَأَعْلَمُ عَنْ غَضْبِهِ
فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، الَّتِي حَفَظَتْ لِلْعِلْمِ، وَلِلْعُلْمَاءِ فِي عَصْرِهِ مَكَانَتِهِمْ .

وَهَا هُوَ ذَا أَيْضًا : أَبُو الْقَادِمِ الشَّاطِئِ (الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ) يُرْسَلُ إِلَيْهِ أَحَدُ أَمْرَاءِ عَصْرِهِ رَسُولًا يُسْتَدِعِيهِ عَنْدَهُ ، لِيَسْتَفْتِيهِ فِي أَمْرٍ ضَاقَ بِهِ مِنْ حَوْلِهِ ، وَكَانَ الْأَمْيَرُ قَدْ عَلِمَ مَكَانَةَ أَبِي الْقَادِمِ وَفَضْلَ مَنْزِلَتِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْقَضَاءِ ، فَيَرِدُ « الشَّاطِئُ » رَسُولًا لِلْأَمْيَرِ بِوْرَقةٍ صَغِيرَةٍ ، طَالِبًا إِعْطَاءَهَا لِأَمْيَرِهِ ، بَعْدَ أَنْ نَظَمَ فِيهَا هَذِينِ الْبَيِّنَيْنِ :

قَلَ الْأَمْيَرُ مَقَالَةً مِنْ عَالَمِ فَطَقَ فِيهَا
إِنَّ الْفَقِيهَ إِذَا أَتَى أَبُوا بَكْرٍ لَا خَيْرَ فِيهِ

فَأَىٰ إِعْتِدَادٍ بِالْفَقِيهِ وَإِعْتِزَازٍ بِالْعِلْمِ يَسْمَوْ فَوْقَ هَذِهِ السَّكَامَاتِ الْمُوحَزَةِ
وَالْمَنْظُومَةِ فِي بَيْتِ الشَّاطِئِ الْفَقِيهِ ؟

ثُمَّ لِنَسْتَمْعَ إِلَى صَوْتِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّاتِ
الَّتِي تَمْجِدُ هَمَّتَهُ الْعَالِيَّةَ وَنَفْسَهُ الْحَرَةُ الْأَبِيَّةُ ، وَتَجْسِدُ قَناعَتَهُ وَرَضَاهُ بِالْقَلِيلِ
عَنِ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ ، وَكَيْفَ أَنْ ذَلِكَ لَا يَلْجَأُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَا يَشْعُرُهُ بِالْحَاجَةِ
إِلَى أَىٰ مَخْلُوقٍ ، فَيَقُولُ (١) :

أَنَا إِنْ عَشْتُ لَسْتُ أَعْدَمْ قَوْتًا
وَإِذَا مَتْ لَسْتُ أَهْدَمْ قَبْرًا
هُمْ هُمَّةُ الْمُلُوكِ ، وَنَفْسِي
نَفْسُ حَرَّتِي الْمَذْلَةُ كَفَرَا
وَإِذَا مَا قَنَعْتُ بِالْقُوَّةِ عَرَى
فَلَمْ أَذَا أَزُورْ زِيرًا وَعُمْرًا

وَلِالْشَّافِعِيِّ وَأَمْثَالِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْمَقَامِ مَنْظُومَاتٌ غَيْرُ قَلِيلَةٌ تَوَكَّلُنَا

(١) دِيْوَانُ الشَّافِعِيِّ ص ٥٨ تَحْقِيقُ الدَّكْتُورِ عَبْدِ الْمُنْعَمِ خَفَاجِي

أنهم يتجمون بمثل هذه الألوان الفنية من الفخر أو الاعتزاد بالنفس والاعتزاز بالعلم اتجاهاته بذاتها ، وينحون به منحى جليلاً من الرقة والسمو بالنسبة البشرية لا يعرفه غير ذوى البصيرة والثابرين في الحياة .

ولنقرأ للشافعى أيضاً هذه الأبيات لنرى هذا اللون الغريب من الفخر حين يقول (١) :

على ثياب لو يساع جميعها
بفلس ، لكان الفلس منهن أكثرها
وفيهن نفس لو يقاس بعضها
نقوس الورى ، كانت أجل وأكثرا
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده
إذا كان عضباً حيث وجته فرا

فليست غاية الإمام وأمثاله المبالغة بما يزدان به غيره من فاخر الثياب وإنما مطلب السكال ، وغايتها معالى الأمور ، وما عليه بعد ذلك أن يستره من الثياب مالا يقدر بفلس واحد ، فتى كان النجد الخلق أو الجفن البالى مفقوداً قيمة السيف القاطع ؟

لأنه نصر العلماء بالعلم ، وزهوهم بالخلق السكري ، خلال كلام منظومة ،
وأبيات من سحر البيان .

ثم لنختم هذا اللون الفني من فنظم العلماء ، بما أنسده القاضى الشاعر :
أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجانى (صاحب الوساطة) حيث يقول (٢) :

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٧ ص ٢٢٠

(٢) يديمة الدهر ج ٤ ص ٢٣

يقولون لـ فـ يـ اـ نـ قـ باـ ضـ وـ إـ نـ ماـ
رـأـوا رـجـلـاـ عـنـ مـوـقـفـ الـذـلـ أـحـجـمـاـ
إـذـا قـيـلـ هـذـا مـشـرـبـ قـلـتـ قـدـ أـرـىـ
وـالـكـنـ نـفـسـ الـحـرـ تـحـتـمـ الـظـماـ
وـلـمـ أـقـضـ حـقـ الـعـلـمـ إـنـ كـانـ كـلـاـ
بـدـاـ مـطـمـعـ صـيرـقـهـ لـىـ سـلـماـ
وـلـمـ أـبـتـذـلـ فـ خـدـمـ الـعـلـمـ مـهـجـتـيـ
لـأـخـدـمـ مـنـ لـاقـيـتـ ،ـ لـكـنـ لـأـخـدـمـاـ
أـشـقـ بـهـ غـرـسـاـ وـأـجـنـيـهـ ذـلـةـ
إـذـنـ فـاقـبـاعـ الـجـهـلـ قـدـ كـانـ أـحـزـمـاـ
وـلـوـ أـهـلـ الـعـلـمـ صـافـوـهـ صـانـهـمـ
وـلـوـ عـظـمـوـهـ فـ الـفـوـسـ لـعـظـمـاـ
وـلـكـنـ أـهـافـوـهـ فـهـافـوـاـ وـدـنـسـوـاـ
مـحـيـاهـ بـالـاطـمـاعـ حـتـىـ تـجـهـمـاـ

لـنـهاـ كـلـمـاتـ مـدـادـهـ التـواـضـعـ فـ رـفـعـةـ ،ـ أـوـ الرـفـعـةـ فـ تـواـضـعـ ،ـ وـهـذـاـ
شـأـنـ الـعـلـمـاءـ لـاـ الـمـتـعـالـيـنـ ،ـ وـسـعـادـةـ الـزـهـادـ لـاـ الـمـتـزـهـدـيـنـ ،ـ حـيـثـ لـاـ يـعـدـلـ
ابـتـهـاجـ نـفـوسـهـمـ بـالـعـلـمـ وـتـفـرـغـهـمـ لـإـلـيـهـ أـيـ جـاهـ أـوـ سـلـطـانـ .ـ

وـهـذـاـ نـرـىـ القـاضـىـ الشـاعـرـ قـدـ جـمـعـ فـ أـبـيـاـنـهـ الـقـلـيلـةـ غـايـاتـ كـثـيرـةـ ،ـ يـتـوـجـحـاـ
شـرـفـ الـمـعـنـىـ وـرـقـةـ الـأـسـلـوبـ .ـ وـرـوعـةـ الـتـصـوـيرـ ،ـ وـحـسـنـ قـاتـ لـلـفـسـكـرـةـ
بـمـاـ يـشـهـدـ لـهـ بـالـجـودـةـ وـسـلـامـةـ الـطـبـعـ الـشـعـرـىـ .ـ

وـهـكـذـاـ يـتـرـاءـمـ لـنـاـ اـعـتـدـادـ الـعـلـمـاءـ بـأـنـفـسـهـمـ وـبـعـلـمـهـمـ غـرـضاـ مـسـتـقـلاـ ،ـ

احتواه منظوماتهم وباینت فيه أفكارهم ومعانיהם وأخيتهم عرض الفخر
المعود لدى غيرهم من الشعراء .

ومع ذلك فقد وجدنا لغير قليل منهم أيضاً منظومات في الفخر ،
يحاورون بها سوادهم وتميز بسمة التطاول على أقدار الناس . والترفع
بذواتهم عن غيرهم .

ولا شك في أن للنفس البشرية دورها في هذا الأمر ، وإنهم ليسوا
بمنأى عن الزلل والوقوع في بعض الاهناف والأخطاء كغيرهم من الناس
في دروب الحياة .

ومن منظومات هذا اللون الفخري لدى العلماء . قول أبي المنظفر : محمد
ابن أحمد الأبيوردي الخرساني ، وهو أبوى النسب ، وكان عالماً فقيها ،
وشاعرًا أدبياً(١) :

الناس من خولي والدهر من خدمي
وقمة الجسد عندي موطن القدم
والنصر يتبع سيفي حين يلحظه
والدهر ينشد ما يهمي به قلمي
لو صيفت الأرض لي دون الورى ذهبا
لم ترضها — لم رجي فائلاً — همي

وهو كما ترى ضرب من المغالاة في الفخر بنفسه ، بل والإغراء فيه
حسب ما كان سائدًا في عصر بنى أمية . حيث كانت تتأجج نيران العصبية
وبخاصة لمن كانوا ينتمون إلى بنى أمية كفقيرنا الشاعر .

فهو بقوله هذا يدور في قلك قومه من بيدهم أمر الدولة كما نرى ،
ولألا فاني لعالم فقيه أن يتحدث عن نفسه بهذه الصورة ، حيث تلاحق
النسور غزواته ويردد الزمن أحاديثه ، وتزل تحت قدمه أسمى الغايات ،
وتخضع أمامه الحياة والأحياء ويستهين بذهب الأرض عطاها لمن يطلب
منه الغوال ؟

إنما نفس الإنسان ، وملائكة الشعر ، وملائكة النفس لأمارة بالسوء ،
صدق الله العظيم .

وها هوذا إمامنا الشافعى رضى الله عنه يفتخر ببعض أبيات يقول
فيها وإن بدا متخفيا شديد الخدر (١) :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليومأشعر من لم يبد
وأشجع في الورى من كل ليث وأل مهلب وبني يزيد
ولولا خشية الرحمن ربى حسبت الناس كلهم عبيدي
فانظر إلى ما أحدثه صدر البيت الأخير من اعتدال ووقف على
جاده الطريق المستقيم . في الوقت الذي تسالت فكرته وما يرمي إليه من
رغبة وهو يشرى إلى غيره من الناس .

إن التمسك من العلم والشعر معاً وحسبه أمام الله والناس هذا .

ولإذا ما إتقانا إلى فن آخر كالمحاجة مثلاً ، وجدنا للعلماء فيه أيضاً
ما ليس لهم ، فهم لا يمتدحون - كباقي الشعراء - لطلب دفياً . أو
لتحقيق غاية ، أو ترلها إلى ذى جاه وسلطان وإنما الجديد في هذا الفن أن
العلماء يرقون بعدهم فوق تلك الغايات ، حتى لا يطلبون بها الغوال أو

العظام من يسعى غيرهم لآية ويريقون أمامه بـ^{مدائحهم} ماء الوجه والسلامة
في غالب الأحيان، وإنما كان العلماء يرجون بها رضا الله سبحانه وطاعة
رسوله عليه الصلاة والسلام فقصور مدائحهم وتوسلاتهم الغابعة من
قولهم الخاشعة . على ذات الله ورسوله وأحبابه من آل البيت النبوى
الظاهر .

وبذا سمع مدحهم ، وارتقت غايتهم ، وكان لهم في هذا اللون
ما لا يطأول بدرجات غيرهم من المتكتسين .

ومن هنا فلم يكن العالم الشاذ عن الجماعة ، والذى دعته الضرورة ، أو
غلب عليه الهوى وقتا فامتدح غيره من أولى الأمر فى الدنيا ، بهنأى عن
النيل منه أو التعر يض به من سواه ، ومقصورة أبي زيد المكودى (العالم
النحوى) في العقب على ابن دريد لمدحته ، أو مقصورته في ابن ميكال
الشهيرة ، وكذلك في العقب أيضا على حازم القرطاجنى ، مدحته أو
مقصورته أيضا في المسئنصر الحفصى ، تعد شاهدا على إتخاذ العلماء سبيلا
موحدا في مدحاتهم ، وأنهم لا يتركون من خرج عن الجادة دون توجيه
أو تعديل للمسار ، فبدت إتجاهات العلماء في مدحاتهم وهى تخرج دائما على
مدارج السκال ، حيث تتصهر ذواتهم في قلck المدائخ للذات العلية ويتغنى
فيها بالحب الإلهي الطاهر ، فترى قدي أقوا لهم فيها حللا خاصة من السمو
الروحى ورقة الغاية والمراد .

ولأن شئت فاقرأ معي قول أبي القاسم السهيلي (صاحب الروض الأنف)
وهو ينتدح من بيته الأسر ويسأل من يملك الإعطاء(١):

سأله ما شئت ، إن يمكّنه تسع دفاعاً بالمني والرغائب

(١) أدب الفقهاء ص ١٦١

فسي رب في المزائج ملجاً
وحرزاً إذا خافت هم النواب

إنها دون شك ففحات قدسية وكلمات منظومة بلغة صعدت أنفاس
فقية من قلب مؤمن زاخر بصدق العبودية لمن رفت دونه الحجب حيث
لا خشية أمام فيوضات رحمته من نوائل الأيام وحدثان الدهر .

ومنظومات هذا اللون من المداعج النقية وقصائد العشق والتفاني في
الذات الباقيـة تندد دونها الكلمات ، وحسينا ما رمزنا به في هذا المقام ،
فلصاحب السيرة العطرة أيضاً عليه الصلة والسلام مدحاته التي فاقت كل
فنون الشعر عند هؤلاء العلماء ، حيث لا تملق من مدحه ، ولا رباء في مفرد
جلائل أعماله ، وكيف لا يرثون بأشعارهم الغاية في هذا المقام ، وهم
الذين يخشون الله من عباده ، ويمتحنون من لا تداني بأسمى صفات العالمين
صفاته صلوات الله وسلامه عليه .

ومن هنا أيضاً حسينا بعض أبيات نجتازها من إحدى المطولات في
مدح الرسول ﷺ حيث يتعدد البصر في حيرة ، ويقف المرء مشدوهاً
أمام عشرات القصائد والمطولات ، دون قدرة على اختيار إحداها أو جزء
من أبيات بعضها ،

ولعل فيما أنسده العالم الأديب ابن أبي الحصال الذي كان يعمل كتاباً
لعلى بن يوسف بن قاشفين بمراكش في القرن السادس الهجري ما يروى
بعض الظاماً الروحي ويختلف من غلواء الصباية والحب لساكن المدينة
المحبيب عليه الصلة والسلام وذلك بذكر أبيات من مدحاته النبوية التي
يستهلها بقوله (١) :

إِلَيْكَ فَهُمْتِي وَالْفَوَادِ بِيُثْرَبِ
 وَإِنْ عَاقَى عَنْ مَطْلَعِ الْوَحْىِ مَغْرِبِ
 أَعْلَلَ بِالآمَالِ نَفْسًا أَغْرَاهَا
 بِتَقْدِيمِ غَايَاتِي وَتَأْخِيرِ مَذْهِبِي
 وَدِينِي عَلَى الْأَيَامِ زُورَةً أَحَمَّدَ
 فَهَلْ يَنْقُضِي دِينِي وَيَقْرَبُ مَطْلَبِي
 وَهَلْ أُرْدَنْ فَتَحَلَّ الرَّسُولُ بِطِبِّيَّةِ
 فَيَابُودُ أَحْشَانِي وَيَاطِيبُ مَشْرِبِي
 وَهَلْ فَضْلَتْ مِنْ مَرْكَبِ الْعُمَرِ فَضْلَةَ
 قَبْلَغَنِي أَمْ لَا بَلَاغَ لَمْرَكَبِي
 أَلَا لَمْتَ زَادِي شَرْبَةَ مِنْ مِيَاهِهَا
 وَهَلْ مَثَلَهَا رِيَا لَفْلَةَ مَذْقَبِ
 وَيَا لِيَتَنِي فَبِهَا إِلَى اللَّهِ صَابِرِ
 وَقَلْبِي عَنِ الْإِيمَانِ غَيْرَ مَقْلَبِ

ثُمَّ يَطْوُلُ نَفْسُ الْعَالَمِ الْمُحِبُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَبِيَابِ يَتَحَسَّرُ فِيهَا عَلَى مَافَاتِ
 مِنْ عَمَرِهِ دُونَ أَنْ يَشْتَرِي الْجَنَانَ بِعَزْمَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَيْفَ أَنْ تَوْفِيقَ
 أَخْطَأَهُ وَفَازَ غَيْرَهُ بِمَا كَانَ يَرْجُو التَّقْرِبُ بِهِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَا كَانَ يَمْنِي
 بِهِ نَفْسَهُ مِنْ زُورَةِ الرَّسُولِ الْحَبِيبِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ :

أَمَانِيْ قَدْ أَفَقَ الشَّبَابُ إِنْتَظَارَهَا
 وَكَيْفَ بِمَا أَعْيَا الشَّبَابُ لَا شَبَابٌ
 وَقَدْ كُنْتَ أُمْرِي فِي الظَّلَامِ بِأَدَهْمِ
 فَهَا أَنَا أَغْدُو فِي الصَّبَاحِ بِأَشَهَبِ
 فَنْ لِي وَأَنِّي لِي بِرِيحِ تَحْطِنِي إِلَى ذُرَوةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْمَطْنِبِ

إلى الهاشمي الأبطحي ، محمد
إلى خاتم الرسل المكين المقرب
إلى صفوة الله الأمين لوحبيه
أبي القاسم الهاشمي إلى خير مشعب
إلى ابن الذبيحين الذي صيغ مجده
ولما تصحع شمس ولا بدر غيب

ومن كلمات النور المدحى أيضاً تطالعنا هذه الآيات التي يرويها الصفدي في كتابه : « نكت الهميان »^(١) ، مع غيرها للعالم الفقهاء المحدث الأديب الرباني : جمال الدين أبي زكريا يحيى بن يوسف الصرصري ، الذي يقول عنه ابن تغري بردي : « إن مدائحه في النبي ﷺ تقارب عشرين مجلداً ، وهي استعراض نظمي رائع للسيرة العطرة » بما فيها من من المعجزات ، والغرائب ، والإشادة بالخلفاء الراشدين ، وحسبنا هذه الآيات من « خاتمة » الطويلة في مدحه عليه السلام حيث يقول فيها :

يا خاتم الرسل الكرام وفتح ال سخارات ، يا متواضعاً شماخا
يا هن رست وسمت قواعد دينه وبه هوى أنس الضلال وساخا
يا خير من شد الرجال لقصده حادى المطى وفي هواء أناخا
عطفا على عبد تعاق حبكم حفلاً وفي صدق الحبة شاخا

والحق أن باب مدائح العلماء في هذا المقام رحب فسيح ، وللفقهاء فيه صولات وجولات تفعد دون اللحاق بالكثير منها غرر القصائد لدى غير

(١) نكت الهميان – للصفدي – ٣٠٨

(٢) « النجوم الزاهرة » – لابن تغري بردي ج ٨ ص ٦٦

القليل من خول الشراء ، يل لعله خير الأبواب التي وجدوا فيها منطلقاً
الروحى الحقيقى حيث صاغوا — دون غيرهم من الشعراء — مدائحهم
بروحانية وصدق إيمانى إلى من يسخرها .

ومن هنا ، فلاغرابة أن تجد الخليفة العبادى الثانى : أبا جعفر المنصور
يغتظر فيمن حوله يوماً فلا يجد إلا مطرياته أو متزلفاً إليه من الأمراء
أو الوزراء أو القواد أو الشعراء ، ولكن شخصاً واحداً يحيى السه الخليفة
ويرى فيه مالم يره في غيره ، وهو العالم الزاهد : عمرو بن عبيدة ، فيطلب
النظر إليه ، ثم يقول له حوله جميعاً :

كلكم يمشى رويد ككم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيدة (١)

وحسب هذا العالم أن يمدح بلسان من يهافت خول الشراء على مدحه
أو التهرب إليه .

ولاعجب أن يكون مثل هؤلاء العلماء الأتقياء ضرورياً من شعر الزهد
تقوى بهم إلى منزلة سامية في هذا اللون الفنى أيضاً ، حيث تشعر في مفظوماتهم
تمام اليقين بالله سبحانه ، فوق معرفتهم المؤكدة لما في الدنيا من زائل
المتاع .

ومن نماذجهم الزهدية ، ما نراه في قول الفقيه الزاهد : ابن العمال
الطايطلى (٢)

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئاً يدوم
فاغذر منها في أمان إن يساعدك النعيم

(١) أدب الفقهاء ص ١٤٣

(٢) نفح الطيب — المقرى — ج ٤ ص ٢١٣ ، ١٩٥

وإذا أبصرتها منك على كره تهيم
فاسأل عنها وأطرحها وارتاحل حيث تقليم

ثم لمستم إلى هذه الخاطرة السريعة التي نظمها العالم الفقيه المحدث :
أبوالوليد الباقي سليمان بن خلف (صاحب كتاب أحكام الفصول في
أحكام الأصول ، وكتاب التعديل والتجريح) يقول : (١)

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياني ساعة
فلم لا أكون ضئلاً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

ولقد عمد كثير من العلماء إلى أسلوب المناجاة الصوفية الحالص ، سالكاً
سبيل أهل الطريق تاماً وتشوقاً وس克拉ً وفتاءً وكشفاً وحنيناً وأنيناً
وارتياحاً كما نجد ذلك في قول الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عيسى
الألبيري : (٢) .

شربت بكأس الحب من جوهر الحب
رحيقاً بكاف العقل في روضة الحب
وخامر ماء الروح فاهتزت القرى
قوى النفس شوقاً وارتياحاً إلى الرب
وفادي حنبنا بالأنين حنيناً
إلهي إلهي ، من اعبدك بالقرب
خاطبـه وحيـا إلـيه مليـكـه
سـأـكشفـ يـاعـبدـيـ لـعـينـكـ عنـ حـجـبيـ

(١) وفيات الأعيان - لابن خلkan - ١٤٢ ص ٢

(٢) الذخيرة - لابن بسام - قسم أول مجلد ثان ص ٣٤٢

فأعلن بالتسبيح : ممالك لم أحد
تعاليت عن نفء يكافيك أو صحب
أجول ببعضي فوق بعضى كأنى
بعضى لبعضى كالنجائب والركب
نف بزمام الشوق مني تعطضا إلينك ولا تسلم زمامى إلى أبي
لعلى أنسق ثم أنساه دائمًا رحيقا بكف العقل من جوهر الحب
وأشعار العلماء الزهدية والصوفية كثيرة وجليلة ، وتحمل كغيرها من
أشعارهم سمات الجودة ، وتباهى منظومات الشعراء المتخصصين بالمهارة
والابداع .

وحين نلفت أنظارنا إلى أحد الألوان الأدبية الأخرى التي تناولها
الشعراء من قديم كفن الغزل ، وكيف تطور : (الإباحي) وما فيه من
تهتك وفحش في التعبير إلى الغزل بالذذكر في العصر العباسي . (العفيف)
وكيف وصل بنقاء لفظه وسمو غايته ومعناه إلى مرحلة المناجاة والتصوف .
أقول : إن علماءنا كان لهم في فن الغزل أيضاً مقام ومنظومات ، وإن
لم تتجاوز اللون العفيف إلى غيره إلا قليلاً إذ بدوا في أشعارهم الغزلية
على جانب غير قليل من التحفظ واتخاذ بعضهم الرمز وسيلة للافصاح بها
عما تكتنه صدورهم تجاه الحبيب ، فارتقوا بهذا اللون في غزلهم ونسائهم ،
دون تحبط أو إسفاف أو فحش فيما تناولوه من أقوال .

ولعل من أرق الآيات في هذا المقام ما أنشده عروة بن أذنيه (الفقيه
المحدث) في بيتهن له يقول له الرواة بشأنهما : «إن سكينة بنت الحسين
مررت بعروة وهو بعفاه واره ، فقلت له أأنت ابن أذنيه ؟ قال : نعم ،
قالت : أأنت الذي يقول الناس إنك أمرؤ صالح وأنت الذي تقول : (١)

(١) الأغاني ٢٠٢ ص ٧٦٦

إذا وجدت أوار الحب في كبدى
عمدت نحو سقام القوم أبترد
هبني بودت بيرد الماء ظاهره فن لفار على الأحساء تتقد

قال لها : نعم .

ومن الأبيات السائرة والمنسوبة إلى قوله : (١)

قالت وأبشعها وجهي فبحثت به
قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
أليست تبصر من حولي فقلت لها
غطى هواك وما ألقى على بصرى

وقوله في هذا المقام أيضاً . (٢)

جعلت هواك كما جعلت هوى لها	لمن التي زعمت فؤادك ملهمها
يبدى لصاحبه الصباية كلها	فبك التي زعمت بها وكلها
لو كان تحت فراشها لأقلها	وبيهيت بين جوانحها حبها
يوماً وقد ضحيت إذا لاظلها	ولعمرها لو كان حبك فوقها
شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها	وإذا وجدت لها وساوس سلوة
بلبساقة فأدقها وأجلها	بيضاء باكرها النعيم فصاغها
أرجو معونتها وأخشى ذلها	لما عرضت مسلها ل حاجة

(١) الشعر والشعراء — لابن قتيبة — ٢ ص ٥٧٩

(٢) شرح الخامسة (المتبهيزى) — ٣ هامش ص ٢١١

منعت تحيتها فقلت لصاحب ما كان أكثرها لنا وأقلها .
 فدنا فقال : لعلها معنورة من أجل رقبتها فقلت : لعلها
 وأبيات ابن أذينة كما تجسد حرقات وجمده ولواعات صبابته وهواء
 وقبر في يسر وبساطة تعبير ما أضمرته الجوانح وأخفته الأفيدة .

ولاعبيد الله بن عبد الله بن عتبة (أحد الفقهاء السبعة في المدينة) قوله
 في التودد والحنين إلى زوجته : (١)

أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لوان إنسانا يطير
 عن النفس أن أزداد حبا ولكنى إلى صلة فقير
 وأفذ جار حاك سواد قلبي فأنت على ماعشنا أمير

ومن رقيق غزل القاضي : علي بن عبد العزيز الجرجاني قوله : (٢)
 أهدي الذي قال وفي كنيته مثل الذي أشرب من فيه
 الورد قد أيفع في وجنتي قلت : في باللسم يجهنه
 فال فكرة والأسلوب والتصوير في بيته ينساب كل منها دون تعذر
 أو غرابة بما قد يعز على كثير من المترغبين لعمل الشعر .

من أبيات التودد والحنين أيضا تلك الأبيات التي رقيقة التي نظمها أبو الأسود
 الدؤلي (التابعى للفقيه المحدث النحوى الشاعر) قوله : (٣)

ليت شعرى عن أميرى ما الذى غاله في الود حتى ودعه

(١) الأغاني ٢٧١ ص ٩

(٢) بنتيمة الدهر ٤ ص ٩

(٣) الشعر والشعراء ٢٧٩ ص ٢ وما بعدها .

لَا تَنْهَى بَعْدَ إِذْ أَكْرَهْتَنِي فَشَدَّدَ عَادَةً مِنْ — قَزْعَه
لَا يَكُنْ بُوقُكَ بِرْقًا خَلْبًا إِنْ خَيْرَ الْبَرْقِ مَا الْبَرْقُ مِنْهُ
وَمِنْ أَبْيَاتِ الصِّبَابَةِ وَالْحَنَينِ إِلَى الْمَاضِي وَمَا فِيهِ مِنْ ذَكْرِيَّاتٍ . قَوْل
أَبِي بَكْرِ الشَّبَلِيِّ الصَّوْفِيِّ : (١)

رَبُّ وَرْقَاهُ هَتْوَفَ فِي الضَّجَّى
ذَكَرْتُ إِلَفَنَا وَعِيشَا سَالِفَا
فَبَكَّتْ حَزَنَا فَهَاجَتْ حَزْنَى
وَبَكَاهَا رَبِّنَا أَرْقَنَى
فَبَكَانِي رَبِّنَا أَرْقَنَى
وَلَقَدْ تَشَكَّوْ فَنَا أَفْهَمَنَا
غَيْرُ أَنِي بِالْجَوَى أَعْرَفَنَى
وَهِيَ أَيْضًا بِالْجَوَى قَعْرَفَنَى
أَتَرَاهَا بِالْبَكَاهِ مُولَعَنَى
أَمْ سَقَاهَا الْبَيْنَ مَا جَرَعَنَى

وَأَنِي لِشَارِحٍ أَنْ يَعْنِي بِمَدْلُولِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَكْثَرُهَا وَفِي بَهْ صَاحِبِهَا
أَوْ يَتَأَقَّلُ لَهُ مَثَلُ مَا أَوْتَيْهِ نَاظِمُهَا مِنْ رِقَّةِ الْلَّفْظِ وَدَفْعَةِ الْمَعْنَى وَجُودَةِ الصِّبَابَةِ
وَرُوعَةِ التَّصْوِيرِ ؟

وَهُنَّ أَنْ يَطْوِلُ بِنَا الْمَقَامُ فِي هَذَا الْأَلوَنِ الْفَنِيِّ عَنْ سَابِقِيهِ ، فَسَوْفَ
نَكْتَفِي بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الغَزْلِ (الْعَفِيفِ) وَهُوَ السَّكَّةُ الْفَالِبَةُ فِي غَزْلِ
الْعَلَمَاءِ حَتَّى يَدْسُنِي لَنَا إِلَقَاءَ الضَّوْءِ أَيْضًا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنِ الغَزْلِ (غَيْرُ
الْعَفِيفِ) لَدِي بِعْضِ الْعَلَمَاءِ ، لَأَنَّهُمْ مُعَذَّلُونَ (قَاتِلُهُ أَوْ فَدَرَقُهُ وَشَذُوذُهُ فِي أَشْعَاعِهِمْ)
لَوْنُ أَدْنِي لَهُ سَمَّاَتُهُ وَمَلَاحِمُهُ وَقَدْرَاتُ قَاتِلِيهِ . وَهُنَّ أَنْ يَتَرَى بَاعِ الْفَقَهَاءِ
وَقَدْ قَصَرَتْ عَنِ الْسِّكَّةِ فِي هَذَا الْأَلوَنِ أَيْضًا .

وَمِنْ هَنَا فَسَوْفَ نَكْتَفِي بِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي أَنْشَدَهَا فَاضِي أَشْبِيلِيَّةُ
أَبُو حَفْصِ بْنِ عَمْرٍ وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

مشت كالغصن يثنىء النسم ويعدوه النسم فستقسم
طها ردف تعلق في لطيف وذاك الردف لي وطا ظلوم
يعدني إذا فكرت فيه ويتعها إذا رامت قوم
وما حي لها إلا عذاب عليه من نضارتها نعيم

وهي أبيات لا زرها تقل عمما نظمه العلماء في هذا الغرض وسابقه من
الأغراض ، كما تنسق بها سمات القدرة على الصياغة والسلامة في الطبع الشعري
بما لا يقل عن فظيره لدى حاملي لواء الفريض من الأدباء

ولسوف فطوف مسرعين في باقي الرياض الأدية لعلمائنا بعد أن
افتتحت مهاراتهم في ضروب الشعر ، وقدمت جوانب الإبداع الفنى في
منطوق ماتهم خلال ما تناولناه من سابق الفنون والأغراض حتى تكتمل دائرة
الضوء من حولهم فيرى غير المنصفين لهم ماخفي من جوانب عظمتهم
ودلائل قدراتهم وتمكنهم من الإجاده في العلوم والآداب على حد سواء .

فالمجاهء مثلا يعد من الأغراض التي قد يتراوی للسکيرون بعد العلماء عنده
وعدم التعرض له ، خاصة وأن غير القليل من صناعهم الشعر كافرا
يقرزون منه ، أو تحول أخلاقهم دون السكتابة أو النظم فيه ومع هذا يجد
بعض الفقهاء في هذا المقام بعض المفظومات ، وإن بدت أقل الأغراض
كتابة لديهم ، فهي خارجة دون شك عن مأمورهم وحقيقة طباعهم ، ولذا
فإن مازراه من مجاهء الفقهاء ينأى عن الإسعاف وسوء التناول أو المبالغة
الممجوجة ، كأنزاه عند غيرهم من المتخصصين في صناعة الشعر .

فها هو ذا الشیخ الفقیہ : محمد بن سعید المک یهجو بعض أهل عصره
فیقول : (۱)

atzk al-ugib fma ant soi
Rجل إما لضحك أو لغم
Kfarab assoweh yeshi mraha
معجبا وهو أخو الشؤم الأذم
yaghshil al-thob wfi akhnafah
يغسل الثوب وفي أكسنافه
Fq batn al-tqribi wal-hijah yekun al-nasikh wa al-irshad, w-hadha daima shan
ففي باطن التقرير والهجاء يكمن النصح والإرشاد، وهذا دائمًا شأن
al-raghibin fi al-khier min al-ghibad.
الراشدين في الخير من الغياب.

كما نجد في منظومات الفقهاء الهجائية أيضاً ألواناً من الطراقة والملاح المستعذبه ومن ذلك ما يروى : أن الحافظ بن حجر العسقلاني ، وبدر الدين العين (العالمين الجليلين) لم يكونا على وفاق في الرأي ، فشبّثت بينهما علاقة غير حسنة ، وحدث أن مالت منارة المدرسة المؤيدية بمصر ، على برج باب زويلة ، وكان للشعاراء في ذلك منظومات غير قليلة ، فاقتبس ابن حجر العسقلاني هذه الفرصة وأنشد هذن البيتين معرضنا فيهما « بالعيني » فقال (١) :

لجامسح مولانا المؤيد روفق
منقارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت على البرج أهملوا
فأيمس على جسمى أضر من «العين»
ويبلغ ذلك «العين» فيرد على «ابن حجر» بهذين البيتين ويقول فيهما:
منارة كعروس الحسن إذ جلست و هدمها بقضاء الله والقدر
قالوا : أصيـب «بعين» ، قلت ذا غلط
ما أوجـب الـدم إـلا خـسـةـ الحـجـرـ
والتعريض في قول كل من العالمين بصاحبه لا يحتاج إلى بisan ، مع
لحظة قوة البدمة وحسن الصياغة وسلامة العرض وجودة النظم .

وفي مقام قدرات العلماء على النظم أيضاً في مجالات الفنون المختلفة بالإضافة إلى مهاراتهم العلمية وثقافتهم المتباينة، نجد أن كثيراً من الفلاسفة قد نظروا أفسكارهم العميقه ونظراتهم الدقيقة في السكون والحياة، وقد كثُر ذلك في العصر العباسي بخاصة حتى بدأ ظاهرة من ظواهره.

ولعل من أشهر القصائد أو المنظومات في هذا المقام وأسيرها، ذلك «الرأيية» التي نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا ولديستله، وهي في الحقيقة لابن الشبل لمغدادي «الحسين بن عبد الله بن يوسف» الذي تميز بالحكمة والفلسفة، كما كان خبيراً بصناعة الطب فوق أنه كان أديباً وشاعراً، وهو يستهلها بقوله^(١) :

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي أنها مضا منك انبعاث
وفيك نرى القضاء وهل قضاء سوى هذا القضاء به قادر
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار
فابن الشبل يبدو في حيرة وقلق أمام تلك الحركة الالاتجائية للفلك المدار
وهل هو كما يتصور بعض الفلاسفة يسير دوراته المنظمة للسكون عن قصد
منه أم أن دوراته هي دورة ولا حيلة للفلك في ذلك، ثم يتساءل ابن الشبل
إن كان هناك فضاء آخر لهذا الفلك؟ وهل للأرواح حياة تخليه بها في العالم
العلوي حيث ترفع إليه، أم يلحقها الفناء مع أجساد المخلوقات في العالم
السحيق؟ ثم يستمر في استعراض حيرة وألغازه فيقول :

ودهر ينشر الأعمار نثرا

كاللورد في الروض اقتشار

(١) دمية القصر - للباقري - ج ١ ص ٣٥٢ وما بعدها

وَدُنْيَا كُلًا وَضَعَتْ جِنْفِنَا غَدْتَهُ مِنْ فَرَائِهَا ظَرُورًا
هِيَ الْعَشْوَاءِ مَا خَطَبَتْ هَشِيمَ هِيَ الْعِجَاءُ مَا جَرَحَتْ جَمَارَ
فَنَ يَوْمَ بِسْلَا أَمْسِ وَيَوْمَ بِغَيْرِ غَدِ إِلَيْهِ بَنَا يَسَارَ
فَالْأَعْمَارُ وَرَوْدَ تَسْقَطُهَا يَدُ الدَّهْرِ ، وَالْدُّنْيَا أَمْ غَشُومَ تَلَدُّ وَلَا تَرْضَعُ ،
وَمَا قَنَالَهُ بَحْرَاهَا لَا يَصْلَحُ لِلْبَقاءِ ، وَمَا الْحَيَاةُ غَيْرُ يَوْمٍ هَشِيمٌ لَا أَمْسٌ لَهُ
وَلَا غَدٌ .

وَهَذِهِ الْأَلْوَانُ مِنَ الشِّعْرِ الْفَلَسْفَى مُوْجَودَةٌ بِكَثْرَةٍ لِدِي الْعُلَمَاءِ ، وَلِعِلَّ
مِنْ أَشْهَرِهَا وَأَكْثَرِهَا سِيرَوْرَةٌ [مَا أَنْشَدَهُ أَبُو الْفَقِيسُ] ، أَحَدُ الْفَلَسْفَةِ الْشَّعْرَاءِ
فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ إِذَا يَقُولُ (١) :

فِي النَّفَسِ وَالْجَسْمِ إِنْ فَسَكَرْتْ مَعْتَبِرٍ
بِلْ دُونَ ذَلِكَ ضَلَّ الرَّأْيُ وَالْفَسَكُرُ

وَحَمَارٌ كُلُّ لَبِيبٍ فِي اتِّخَادِهِمَا
وَقُلْكُلٌ عَيْنٌ وَهَذَا حِكْمَةُ الْأَثْرِ

يَا لَيْتَ شَعْرَى إِذَا الْأَبْدَانُ أَضْمَرَهَا
يَدَ الْبَلِّي وَحْوَاهَا التَّرْبَ وَالْمَدْرَ

هَلْ لِلْفَفُوسِ التَّفَاتٌ نَحْوَ عَالَمِهَا
كَلَّا تَلْفَتْ نَحْوَ الْمَرْكَزِ الْحَجَرِ

لِيَحْصُلَ الْفَوْزُ فِي دَارِ الْخَلُودِ هَلْ
وَتَلْقَفُنِي دُونَهَا الْآفَاتُ وَالْفَسَرِ

(١) صوان الحكمة — لأبي سليمان المنطقى السجستانى — ص ٣٥٩
(تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى)

أُم تضليل كا قد بات هيكلها
ولا يحس لها ورد ولا صدر

هذا الذي صدّت منه خواطرنا
وليس يخلو صداها العلم والخبر

فلا علم بمصير النفس بعد فناء الجسد إلا لله وحده، أما كونها تفني مع
الجسد أو ترقى بعد انتهاء دورته في الحياة إلى المسكون الأعلى، فذلك هو
الأمر المثير والمشكلة المعقدة لدى جماعة الفلاسفة كما نرى.

وعلى كل فنّل صياغات محكمة لأفكار عميقه ومعان دقيقه ، تدل على
تمكّن من النظم لا يقل عن تمكّن هؤلاء الفلاسفة في علومهم ، إن لم يتميزهم
بتلك المنظومات عن غيرهم من المتخصصين في الشعر ، إذ لا وجود لمثل
هذه الألوان الفنية في منظوماتهم .

وحيث ينتقل بنا المقام إلى الحديث عن الشعر التعليمي ، فسنجد أن
العلماء قد تبّرعوا بمحاربة سخراة هذا الفن ، إن لم يكونوا قد ضيقوا المكان
على غيرهم فيه حتى لم يكدر يرى في كل أزمنته ومنظوماته سواهم ، مما يدل
على طول باعهم فيه ، وتمكّنهم من صناعته الشعرية في مختلف الموارد والعلوم
وان تفاوتت القصائد والمنظومات في عدد الأبيات قلة أو كثرة .

ولعل من أشهرها تلك الألبيات من الأبيات التي تذكر منها : في النحو
والصرف : ألفية بن مالك وألفية السيوطي وألفية ابن معطى ، وفي
الأصول : ألفية البرماوى ، وفي علوم البيان : ألفية السيوطي وألفية
القباقي ، وفي المنطق نجد ألفية أبي الوفاء المصرى ، وفي مصطلح الحديث
نجد ألفية السيوطي وأيضاً ألفية العراق ، كما نجد في الطب ألفية داود
الأنطاكي ، وفي تعريف الروايا ينظم فيها ابن الوردي أيضاً ألفيته .

وتعد منظومة دمشق (بدر الدين) : من أطرف وأحكم ما كتب عن العلاقة بين الرجل والمرأة وما في حياتهما من الأدب والاحكام حيث تجاوزت اثني عشر ألف بيت .

وكليها دون شك ترقى بأصحابها إلى سماوات العمل الأدبي والفنى حيث القدرة على مرد الحقائق العلمية، أو الأحكام الشرعية، أو القواعد اللغوية، أو غير ذلك بتبصير فني رقيق ، وإحكام فى الصياغة والنظم دقيق ، مع الإيمان ، وقرب المأنى ، ورفعة الغاية التي لا يطلبون لها الأجر إلا من الله وحده ، لذلهم لهم سوى إفادة المتنقى وطالب المعرفة ، بأيسر لفظ وأصحح كلمة ، فى سلامه وعذوبه ، قنبرت من خلاطها الحكمة أو الموعظة الحسنة ، كلما استطاع الناظم ذلك .

وحسينا أن نذكر من حشد هم النظمي الزاخر بالمعرفة في هذا المقام ، بعض المطالع النظمية التعليمية مجرد الاستئناس ، وعدم الغفلة عن كثير من مزاياهم الشعرية .

ومن أوانيوم المتعددة في مجالات العلوم ، ما أنشده ابن دريد في المقصور والمددود ، لذ نراه يبدأ بما يفتح أوله فيقصر ويمد ، والمعنى مختلف » وهكذا ، فيقول (١) :

لا تركن إلى الهوى واحذر مغارة الهوا
يوماً تصير إلى الثرى ويصير غيرك بالثرام

فانظر كيف يسدى النصيحة داخل هذا النسج العلمي التعليمي الدقيق »
والذي ينساب في منظومته برقه إلى آخرها .

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة) ص ٢٩

ثم لننظر أيضاً إلى منظومة العلامة «ابن شهرون» في الطب، ولتأمل
في أبياته التي يقول منها:

وَبَعْدَ ، فَالْقَصْدُ بِهِذِي الْجَلْمُ ذَكْرُ مَزَاجٍ قَوْنِسَا الْمُسْتَعْمَلُ
طَبِيعُ الْحَبُوبِ وَمَرْكَبُ الْغَذَا وَمَالَهُ نَفْعٌ وَمَالَهُ أَذْى
وَيَقُولُ فِيهَا أَيْضًا :

وربما ذكر من مياه أمراً كثيর الناس عنه ساهي
تذهب أمراضاً بدت خسيسها
كما نجحيد القول في اللباس
ونبسط التعبير في المقال كما يرى مطابق السؤال

وهكذا تنساب أبيات ابن شقرور ، على سجيته وبطبيعة بعيد عن التكلف أو الصفحة مع احتواء نظمه هذا على تلك الأمور النافعة والمتعددة ، والتي ذكرنا جانبا منها في إجمال يتبعه بتفصيل وقدرة على النظم وجمال في التعبير والتصوير .

أما في مقام الرثاء فقد بد السكثير من العلماء آيات منظومة تقطّر كلاماتها
أسي ولو عه لشحورهم بخلال الفقد وأثر الفجيعة عندهم .

ولا غرابة في ذلك ، إذ كانت تصدر مفظوماتهم في الزئاء عادة من المحبين وذوى العاطفة للصادقة تجاه من يرثونهم من آلهم أو إخوانهم أو رفاقهم في الحياة ، أو من تربطه بالرأي رابطة العلم المتبينة كان ي يكون شيخه أو تلميذه وهكذا .

ومن هذا اللون ما أنشده شهاب الدين محمود القرشي في رثاء شيخه نجم الدين الطبرى قاضى مكة حيث يقول في مطلعها^(١) .

^{٤١} العقد المثمن في تاريخ البلد الأمين - ٣ ص ٢٢ .

ما للجنون بهما التسبيد قد فزلا
وما لطيب الامرى عن مقلتى رحلا
ما بال قلبي بتذكار الهموم له
شغل ودمعى إن كيفته هملأ
نجم أضاء علينا صبح طرفةه
حتى إذا ما انجلت أيامه أفلأ
مفتاح كنز علوم الدين كم فتحت
به بصائر قوم للورى ذللا

فاظظر إلى هذا الاستهلاك المؤثر وكيف يهيء نفس المتعلق لمشاركته
آلامه ويشد انتباه السامع إلى عظم خطبه وفادح أثر فقد على عين الشاعر
وقلبه (ترجمان المشاعر والأحساس عند الناس أجمعين) .

ثم لنقرأ ما أنشده العالم الصوف : أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري في
رثاء صديقه الوزير ابن بقية بهذه القصيدة الشهيرة والتي يبدوها بقوله (١) :

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات
كان الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات
كافك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام . للصلة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما لم إليهم بالهبات

فأى تعبير وتصوّر يبلغ من القلب ما بلغه الشاعر في هذه الآيات ؟
إنها دون شك من كليات القلوب .

(١) وفيات الأعيان ٢٥٥ ص ١٢٠ .

وعندما تسقط مدينة «يربشنر» الأندلسية أمام التورمانديين (ف
عهد الخليفة المقتدر بن سليمان) تتفاعل في نفس العالم الزاهد الفقيه الحديث:
ابن العسال مشاعر الإيمان والغيرة على بلاد المسلمين وأبنائهما، فيرثي بهفه
الأبيات التي يدفع بها القلوب إلى النزول عن حياض البلاد، معرضاً
بها ارتكابه الغازون فيها من فضائح وأهوال يندى لها الجبين، فيقول (١):

ولقد رمانا المشركون بأسمهم
لم تخط ، لكن شأنها الإصواء
هتكوا بخيالهم قصور حريمها
لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها
في كل يوم غارة شعواء
باتت قلوب المسلمين برعبهم
خمساتنا في حربهم جنباً
كم موضع غنموه لم يرحم به
طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من أمه
فله إليها ضجة وبغاء
ولرب مولود أبوه مجده
فوق التراب وفرشه البيداء
ووصوفة في خدرها محجوبة
قد أبرزوها ما لها استخفاء

(١) الروض المعطار - للحميري - ص ٤٠ وما بعدها (طبعة لجنة

التأليف والنشر) ١٩٣٧.

ثم نختتم جولتنا هذه بمنظومة الفيلسوف والطبيب والفلاسفة والأديب:
 «ابن الشبل البغدادي» في رثاء أخيه ، يحتذى به منها هذه الآيات التي
 يقول فيها (١) .

يا أخي عاد بعدك الماء بما
 وسموماً ذاك النسيم الرخاء
 دون سكناً في ثراك شفاء
 كيف أرجو شفاً مابي وما بي
 يتنفس ، ومن منه العفاء
 شيطر فقسي دفت ، والشطر باق
 إن تسكن قدمته أيدي المعايا
 فإلى السابقين تمضي البصاء
 إنما الناس قادم إثر ما ضر به قوم للآخرين انتهاء

وجنوح العالم الشاعر إلى الفلسفة يبدو بوضوح في : عمق الفكرة
 ودقة المعنى وتماسكه من اللغة يتراوح في: قدراته على تخثير الألفاظ وملامحها
 التامة لتوسيع فكرته ، وسعة ثقافته وتعدد معارفه يتجلّ في : روعة
 تصويره ، وتحقيق خياله ، ومشاركة كتّابها في الوفاء بمراده ، وأصالحة موهبة
 وطبعه الشعري يتجلّ في : قدرجه المقصود بالمعنى إلى الغاية خلال الأبيات
 في يسر وبساطة ، ثم في ختمها بالحكمة التي يتراوح في بها فصل الخطاب .

وهكذا تبدو الكلمات والعبارات والأخيلة ، وقد انتظمت بوعي
 وإدراك في سلك الأبيات ، بما يشهد له ، كما يشهد لكتّابه سواه من العلماء
 بالقدرة والتمكن من النظم ، به نفس القدرة والتتمكن من المواد العلمية التي
 عرفوا بها وأفزوا بأعمارهم في سبر أغوارها .

(١) معجم الأدباء ١٠٢ ص ٢٣ وما بعدها .

وَرْجَى

فقد كانت هذه جولة سريعة في رياض الأدب لعلمائنا الشعراء، أمتعدت الأبيات فيها بالاطلاع إلى غرائبهم الفنية المتباينة وخشوع القلوب الوعية إلى همس كلماتهم ، وسحر بيانيهم ، وذلك خلال ما قناؤ لناه من أغراض وفروع شعرية : نسجت أيديهم لها مختلف الأردية وتميزت برفعة الغاية وسمو الهدف ، كارأينا في مدائهم ، وغزفهم ، وهجائهم ، ونثرهم فوق مالم فره في أشعار غيرهم ولا يطأول بنظم سواهم من خول الشعراء كرأينا في الشعر التعليمي ، والشعر الفلسفى ، والإعتماد بالنفس .. الخ.

وبهذا يمكن القول : إن ما قدمه العلماء في منظوماتهم من مهارات وإبداع وابتداع ، فوق ما لهم من قدرات علمية ، ومحارف وثقافات متعددة ، يحسم لهم بافتخار ملامع الجلال والعظمة من خلال إنتاجهم الشعري الذي يعد من أخصب المواد الأدبية للدراسة والتحليل، وأجدرها بالبحث والتنقيب في تراثنا الجليل ، لاستخراج مالاشك في نفعه ولاجدال في طرائفه وعظيم أثره :

دكتور / حلمي أبو العز

مراجع البحث

- ١ - ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، د محمد عبد المنعم خفاجي - الحلبي .
- ٢ - ابن المعتز العباسي - ذ أحمد كمال زكي - أعلام العرب .
- ٣ - أثر القرآن في قطور النقد العربي - د محمد زغلول سلام - ط - دار المعارف .
- ٤ - أمراء البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق د خفاجي .
- ٥ - إعجاز القرآن - الباقلانى - بهامش الإتقان .
- ٦ - بدیع القرآن - ابن أبي الإصبع - ط - هنسته مصر .
- ٧ - البدیع - ابن المعتز . ت - كراتشى كوفسکى . العراق .
- ٨ - البدیع في نقد الشعر - أسامة بن منقذ ط - مصطفى الحلبي .
- ٩ - بغية الإيضاح - الخطيب القزويني - شرح عبد المتعال الصعیدى .
- ١٠ - بلاغة أرساطو بين العرب واليونان - د. ابراهيم سلامة .
- ١١ - البلاغة تطور و تاريخ - د. شوقى ضيف - دار المعارف .
- ١٢ - البلاغة عند الجاحظ - د. أحمد مطلوب - الدار الوطنية بالعراق .
- ١٣ - البيان والتبيين - الجاحظ ت - عبد السلام هارون .
- ١٤ - تأویل مشكل القرآن - ابن قتيبة ت - السيد صقر .
- ١٥ - قاریخ الأدب العربي - الزيات - دار الثقافة بيروت .
- ١٦ - دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - ت محمود شاكر .
- ١٧ - زهر الآداب - الحصرى .
- ١٨ - الصبغ البدیعی فـ اللغة العربية - د. أحمد موسى .

- ١٩ - الصناعتين - أبو هلال العسكري - الآسناة .
- ٢٠ - علم البديع والبلاغة عند العرب - كراتشكوفسكي - ترجمة الحجيري .
- ٢١ - العمدة في مجامن الشعر وآدابه وفقرة - ابن رشيق - ت - محمد محيي الدين .
- ٢٢ - قدامة والنقد الأدبي - د. بدوى طبانه .
- ٢٣ - قواعد الشعر - ثعلب ت : د. خفاجى .
- ٢٤ - مفتاح العلوم - السكاكى - ط - مصطفى الحلبي .
- ٢٥ - مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين . . . د. أحمد عبد السيد الصاوي .
- ٢٦ - الموازنة بين ألى تمام والبحتى - الأدمى - ت السيد صقر .
- ٢٧ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر - ت - خفاجى .
- ٢٨ - نقد النثر - ت . العبادى .
- ٢٩ - النقد المنهجى عند العرب - د. محمد مندور - ط - نهضة مصر .